

من التراث الشرطي



عبدالرحيم حاج يحيى*

من كتب التراث

صحيفة سوابق مفتوحة...!

والنص أدناه زاخر بأساليب متعددة من العمل الشرطي فكراً وتطبيقاً وتفاصيل دقيقة عن حيثيات غامضة لجريمة السرقة إعداداً وتنفيذاً من مرتكبها نفسه ومن اعترافاته الذاتية الكاملة، ثم البراعة الفنية والمهنية الحاذقة التي تجلت في أداء المرأة العجوز... بل وأداء كلبها في التحري والتفتيش والمراقبة حتى تمكن من طرد اللص وكشف المسروقات.

* * *

■ قال لص تائب: دخلت مدينة فجعلت أطلب شيئاً أسرقه فوقعت عيني على صيرفي غني، فمازلت أحتال حتى سرقت منه كيساً وانطلقت هارباً فلما سرت مسافة قصيرة عرضت لي عجوزٌ معها كلب فتوجهت نحوي كأنها تعانقني وتقول يا بني فديتك والكلب يبصيص ويلوذ بي ووقف الناس ينظرون إلينا وجعلت المرأة تقول بالله انظروا إلى الكلب كيف قد عرفه؟!.

فعجب الناس من ذلك وتشككت أنا في نفسي قلت: لعلها أرضعتني وأنا لا أعرفها وقالت: معي إلى البيت، أقم عندي اليوم، ولم تتركني حتى مضيت معها إلى بيتها، وإذا عندها أحداث بين أيديهم جميع أنواع الفواكه والرياحين فرحبوا بي وأجلسوني معهم وكانوا في هيئة حسنة، فجعلت أسقيهم وأرفق بنفسي إلي أن ناموا ونام كل من في البيت فقامت وكورت ما عندهم وهممت بالخروج فوثب علي الكلب وثبة الأسد وصاح وجعل يتراجع وينبح نباحاً عظيماً إلى أن انتبه كل نائم فخلجت واستحييت!!.

فلما كان النهار جعلت أفكر في أمر الكلب إلى الليل فلم أهتمد إلى حيلة ولما ناموا رمت الذي رمته من قبل فإذا بالكلب قد عارضني بمثل ما عارضني به فجعلت أحتال ثلاث ليال فلما ناست طلبت الخلاص منهم بأذنهم، فقلت أتأذنون لي فإني أحب أن أسافر إلى بلدي، فقالوا: الأمر إلى العجوز، فاستأذنتها فقالت: هات الذي أخذته من الصيرفي وامض حيث شئت، ولا تقم في هذه المدينة، فإنه لا يتهاى لأحد أن يعمل فيها مع وجودي بها.

فأخذت الكيس وأخرجتني ووجدت مناي أن أسلم من يدها وقد

- أورد هنا مشهدين مثيرين من مشاهد الجريمة .. بنمطها التقليدي القديم.. بسرد قصصي واقعي جميل ... أسر بنبح وجدائي وجمال فني... بيد أننا لا نكاد نؤخذ كثيراً بتشويق الفن والإثارة بقدر ما نؤخذ ببراعة الحكمة والدهاء في تنفيذ «الفعل» والأداء.

- بهذا نفتح ملفاً مهماً من ملفات الجريمة طواه الزمن .. إنها بمقاييس التراث صحيفة سوابق تاريخية نادرة!!

- يذكر لنا أحد اللصوص التائبين (كتاب الأذكياء لابن الجوزي) تفاصيل دقيقة عن سرقة (صراقة) (وإن شئت فقل بنكاً).. وبينما هو يهيم مغادرة البلدة ومعه الثروة المسروقة فإذا امرأة عجوز يتبعها كلبها.. الذي يحرس بيتها.. ويكشف لها عما يحدث من حولها... ترتاب فيه!! فتصدى له وتطلق كلبها نحوه.. فيبصيص ويشتمش ويحرك ذيله عدة مرات.. ويومئ لها إيماءات.. ويحدثها بهمهمات.. فتدرك منه كل شيء!!

- تقول العجوز (وقد تجمع من حولها حشد من أرباب الفضول يرقبون ما تصنع!! وما يصنع كلبها!!)

تقول (انظروا إلى الكلب قد عرفه!!)

هنا كاد المريب أن يقول خذوني!!

- ولعل من أعظم ما تقدمه هذه القصة المثيرة أنه كان هناك استخدام واسع لوسائل علمية عديدة كانت متاحة يومئذ للكشف عن الجريمة.. فحاسة الشم لدى الكلب استعين بها في الظروف الغامضة بل إن هذه الحيوانات كان لها مجالات واسعة وأشواط بعيدة في ميدان الطرد والصيد... وفي ميدان «فقه الصيد» إذ كان هناك في حياة العرب تعليم لها وتدريب وترويض... حتى إذا أرسلت استرسلت وإذا زجرت انزجرت جاء في محكم التنزيل «يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه».

وقد تفتقت قدرات هذا الحيوان لسبر أغوار عالم الجريمة وخفاياها والغازها فله في هذا الباب أروع النوادر والغرائب.

الجوهر، فسلمه إليه وقال: قد وهبته لك، فاستعظم البواب ذلك وجاء إلى الحاكم فسأله عن القصة فأخبره بها فقال الحاكم: عليّ بابن الخياطة، فجاءوا به فأمر بالإفراج عنه وإزالة قيوده وأجلسه في مجلسه مكرماً ودعا بالطعام فأكل ما أعد له مكاناً للمبيت عنده. وفي صباح اليوم التالي خلا به الحاكم وقال له: اعلم أنك لو ضربت مائة ألف سوط ما أقررت بالكيفية التي سرق بها الجوهر، وقد عاملتك بالجميل ليجب عليك حقي عن طريق الفتوة، وأريد أن تصدقني عن الكيفية التي أخذ بها الجوهر.

قال ابن الخياطة: تقر أنني ومن عاونني عليه آمنون، وأنت لا تطالبنا بالقوم الذين أخذوه قال: نعم فاستحلفه.

فقال له: إن جماع اللصوص حضروا إليّ في الحبس وذكروا حال هذا الجوهر وأن دار التاجر لا يمكن أن تنقب أو يتسلق على جدرانها، وعليها باب من الحديد والرجل منتهب دائماً، وقالوا إنهم راقبوه مدة سنة فما تمكنوا منه وطلبوا مني أن أساعدهم ففعلت، فدفعت إليّ السجن مائة دينار، وحلفت له بالإيمان الغليظة أنه إن أطلقني عدت إليه في اليوم التالي وإن لم يطلقني قتلته غيلة في الحبس.

فانتزع الحديد مني وأطلقني وتركته وخرجت في المساء فوصلنا إلى دار الرجل فإذا هو في المسجد وبابه مغلق، فقلت لأحد من كان معي: تظاهر بانك متسول، واطرق الباب ففعل لما جاءوا ليفتحوا قلت له اختف. ففعل ذلك مرات والجارية تخرج فإذا لم تر أحداً عادت إلى أن خرجت من الباب ومشت خطوات تطلب السائل وتشاغلت بدفع الصدقة إليه فانتهزت أنا الفرصة ودخلت إلى الدار، فإذا أبواب الممرات كلها مقفلة بإحكام، ففكرت في ذبح الرجل ولكنني استقبحت ذلك وقلت إن كانت هذه وسيلة ضرورية فلتكن آخر الوسائل.

وجاء الرجل فغلق الأبواب وقتش ونام على سرير عال والجوهر تحته فلما انتصف الليل وفتحت الخزانة وأخذت السقط وعدت إلى موضعي وعاد الرجل فنام.

فلما كان السحر عدت إلى موضعي وانتبه الرجل يريد الخروج فقال للجارية، افتحي الأقفال من الباب، ودعيه متربساً فانتهزت هذه الفرصة ففتحت النيراس دون أن يشعر بي أحد وانطلقت إلى الشاطئ ونزلت في السفينة. ووقعت الصيحة في دار التاجر فطالبني أصحابي أن أعطيهم نصيبهم من الجواهر فرفضت وقلت لهم هذه قصة عظيمة وأخاف أن يستدل علينا فدعوا الجواهر عندي، فإن مضى ثلاثة أشهر ولم يسألنا أحد أحضروا إليّ وخذوا النصف، وأرسل الله ذلك البواب فخدمني أحسن خدمة فاستحيت منه وخفت أن يقتل هو وأصحابه وقد كنت وطننت نفسي على الصبر على كل عذاب فدخلتم عليّ من طريق أخرى لم أستحسن في الفتوة معها إلا الصدق، فقال الحاكم: جزاء هذا العمل أن أطلقك عليّ أن تتوب فتاب وجعله الحاكم من بعض أصحابه وأسنى له الرزق فاستقامت طريقته وحسنت سيرته.

* مركز الدراسات والبحوث - أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية *

طلبت منها نفقة فدفعتها إليّ وخرجت معي إلى نهاية المدينة، والكلب معها يتبعني حتى إذا سرت مسافة غير قصيرة خارج حدود المدينة أخذ الكلب يتراجع وينظر إليّ ويلتفت وأنا أنظر إليه حتى غاب عني. * وبعد.. فإنه يجدر بنا أن نعيد قراءة هذا النص بمزيد من الاستنباط والتحليل لنستوفي العناصر المتنوعة للعمل الأمني الذي يطرحه ويقدمه من خلال هذا المشهد الدرامي بنسقه الأدبي الرفيع.. وبنسقه الأمني البديع...

- فكم كانت تبدو المرأة العجوز معتدة بخبرتها وعملها أيما اعتداد فلديها هذا الدليل الجنائي المقدم من حارسها اليقظ الأمين إذ فاجأت اللص حين استأذنها (هات الذي أخذته من الصيرفي وامض حيث شئت ولا تقم في هذه المدينة فإنه لا يتهاى لأحد أن يعمل فيها مع وجودي بها).

أما المشهد التالي.. أي الملف الآخر فنتعرف على شخصية إجرامية خطيرة هو (عباس بن الخياطة) استطاع أن يخرج من وراء القضبان ليلاً ليقود أخطر عصابة سطو على المنازل، ثم يعود بالجواهر المسروقة طائفاً مختاراً إلى سجنه ليحتفظ بها فيه تمويهاً وتضليلاً حتى لا يستدلها الباحثون.

والقصة في جانب منها تبرز قيم (الفتوة) اللصومية التي تجعل اللص في مثل هذه المواقف الصعبة يتسامى فينضبط بقيم الصدق ووفاء العهد وبالمروءة.. مما يندر أحياناً في المجتمع الفاضل فينعلم بالحرية والعطاء الجزيل فيظفر بذاته.. وقيمه فتحبو ما لديه من روح التمرد والشور...!!!

وينبض إنساني دافق... ولمسة رفق ولين... وبصفح جميل وإحساس نبيل... من المسؤول... يغادر المجرم العتيد السجن والقضبان والحديد... إلى مجتمع فاضل رشيد... ينعم بالمحبة وبالرحمة وبالآمان.

* * *

إعادة تمثيل الجريمة

■ وكان بالبصرة لص مقدم جريء اسمه (عباس بن الخياطة) قد غلب الناس وألحق الضرر بأهل البلد فاحتالوا عليه إلى أن وقع في أيديهم وقيد بالحديد وحبس.

وبعد سنة من حبسه دخل لصوص على رجل تاجر كان عنده جواهر تقدر بالوف الدنانير وكان متيقظاً جداً ولكن على الرغم من ذلك فقد سرقت جواهره كلها، فجاء إلى البصرة يتظلم وقابل الحاكم وقال له: أنت دستت علي من سرق جواهري، فأنت خصمي فأردد عليّ جواهري، وإلا رفعت أمرك إلى السلطان.

وخلا الحاكم بالبوابين وتوعدهم إذا لم ينجحوا في الكشف عن السارق، فطلبوا منه أن يعطيهم فرصة للبحث. وذهب أحد البوابين إلى الحبس فلزم ابن الخياطة يخدمه ويسهر على راحته، وأظهر له الخضوع والتذلل فقال له ابن الخياطة: قد وجب حقد علي، فما حاجتك؟ قال: جوهر فلان الماخوذ، لا بد أن يكون عندك منه خبر، فإن دماءنا مرتتهنة به وحدثه بما وقع فرقع ابن الخياطة ملابسه فإذا تحتها سفت

